الششتري الشاعر الزاهد والمتصوف الثائر العازف

الدكتور أبو القاسم درارجة
- جامعة الجزائر

بعد أن مرت أكثر من ثمانية عشرة سنة على دراستي للبعض من علماء الأندلس الذين حطوا الرّحال ببجاية وساهموا مساهمة فعالة في تطوير الثقافة بالمغرب الأوسط ، الشيء الذي لا يستطيع أن يجحده جاحد ، ورغم أن البعض من الأجيال السابقة من أبناء وطني - قد اعترفوا بما قدمته هذه الجالية الأندلسية من معارف في شتى فروع العلم والمعرفة ، مثل القاضي الجليل أحمد الغبريني البجائي[1] .

فإني أرى نفسي اليوم مدينا إليهم ، لأني نهلت من علمهم ومعارفهم خيراً وبركة ساعدتني على معرفة الطريق الصحيح وجنبتني المغالطات والمهاترات وجهل الماضي لا من أجل الجهل البسيط بل من الجهل المركب ، وعلموني أن الأمم التي لها حضارة تبني مستقبلها على ضوء ماضيها نظراً لكل هذا ارأتيت من واجبي أن أعترف بالجميل وهو أقل ما يفعله الإنسان الحرّ النزيه الذي لا يسقط في فخ الغرور والإستهتار . ومن بين علماء الأندلس الذين تناولتهم قبل ثماني عشرة سنة[2] باللغة الإسبانية اخترت أن أقدم للقارئ الكريم بطاقة - لا أزعم أنها كاملة - للشاعر الزاهد ، والمتصوف الثائر والزجال العازف على عوده ، علي الششتري المكّنى بأبي الحسن النمري الأندلسي .

تذكر بعض المصادر التي اهتمت بانتاجه[3] وبدراسة الجالية الأندلسية المقيمة عصرئذ ببجاية ، فتلقبه بما يلي : الشيخ الفقيه الصالح العابد ، الأديب المتجرد أبو الحسن النمري الششتري ، ولم تتعرض الى ذكر والده ، في حين يرى البعض من هذه المصادر بأنه ابن عبد الله ، ومهما يكن فالاختلاف بين هذه المصادر لا يشكل عائقاً بل يزيد وضوحاً ، واذا نحن جمعنا شتات هذه المعلومات عن شاعرنا فإننا نفضل ترتيبها على هذا النسق : علي بن عبد الله النمري الششتري اللوشي المكنى بأبي الحسن ، إذا فهو من بني نمير التي هي بطن من بطون هوازن

استوطنت في بادئ الأمر وادي آش GUADEX ثم انتقلت الى ششتر وششتر قرية صغيرة من أعمال قادس «CADIZ» حالياً ، أما اللوشي فهي مدينة بالأندلس تقع في أحواز غرناطة ، وهي مسقط رأس لسان الدين ابن الخطيب صاحب الإحاطة في أخبار غرناطة ، ولقد اتفق جميع مترجمي حياة الششتري على هذه النسبة ، ويضيف الأستاذ المقري في «نفحه» بأن زقاق الششتري معروف في بلدة ششتر المذكورة آنفاً[4] والششتري نفسه يشير في أزجاله الى هذا حيث يقول :

عارض لزجال عاشق سعره كما ترى
غالي في طير أسراره لوشي وششتري

لكن الشيء الذي بقي يشكل عائقاً في طريق الباحث للذي يريد الإلمام بكل ما له صلة بحياة الرجل هو عدم تعرض مترجموا حياته الى أبويه وتاريخ ولادته ما عدا فقرة واحدة لابن ليون[5] (750هـ/1342م أوردها لنا الأستاذ سامي النشار تقول :

«بأن الششتري ولد حوالي سنة 610هـ 1212م ، وهذه معلومة هامة ، رغم عدم تعرضه الى مكان الولادة» ، ويضيف نفس المصدر بأن الششتري كان من الأمراء وأولاد الأمراء فصار من الفقراء وأولاد الفقراء[6] ، واذا تمعنا في شطر البيت الأخير من البيتين السابقين فإننا ندرك ولو بصورة غير قطعية بأنه ولد لوشة وأصل عائلته من ششتر ، وحسب أغلب المصادر والمراجع التي هي في متناولنا ، فإن الششتري لم ينشأ في أسرة ذات ارث علمي وثقافي ، بل في أسرة غنية ، لعل بعض أفرادها كانوا ولاة لبعض المقاطعات غير أن هذه المصادر لا توضح لنا شيئاً معيناً على الإطلاق ، ثم أن شعره خال من أي اشارة الى أبوية ، ورغم شخصيته والتأثير الذي تركه في كل أرض حلّ بها ، ورغم كثرة تلامذته وأساتذته وأصدقائه والمحبين لأشعاره وأزجاله ، وحتى أعدائه فإن هذه النقطة الأخيرة بقيت غير واضحة ولا أدري لماذا تغافل مترجمو حياته عن تسجيل تاريخ ولادته ، ووفاته وتتبع خطواته – ما عدا الذي أشرنا إليه سابقاً .

ومهما يكن فإن غرضنا ها هنا فهم هو نفسية شاعرنا سواء بالنسبة لنشأته أم اتجاهاته الفكرية والفلسفية التي جعلته يتنقل من أرض الى أرض دون سبب ظاهر .

ترى ما هي الأسباب التي جعلته يغادر وطنه الأندلس تاركاً وراءه ثروته وأحبابه وخلانه ؟ لما نكاد نعلم شيئاً عن الأسباب التي دفعت به الى الخروج من وطنه وذلك يعود الى شحّ المراجع بحيث لزم الصمت مترجمو حياته ، ما عادا الدكتور سامي النشار الذي استفدنا منه

كثيراً في بحثنا هذا[7] لكن لدينا عدة أسباب أدت في فترت مختلفة الى هجرة علماء الأندلس فهناك أسباب سياسية وأخرى مادية ، وثالثة لطلب العلم والمعرفة وأخراها أداء فريضة الحج ، ونحن إذا نظرنا الى هذه الفترة التي نزح فيها شاعرنا الى المغرب الأوسط نجد أن الجالية الأندلسية كان حضورها كثيفاً في المغرب الأوسط عامة وفي مدينة بجاية على وجه الخصوص ، حيث كونت هذه الجالية الأندلسية المثقفة حركة علمية هامة لم يسبق أن شاهدتها مدن المغرب الأوسط من قبل ، لقد كان أبو مدين شعيب شيخ الصوفية (المعتدلة) يقيم حلقات درسه[8] وكان عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخراط[9] من أكبر شيوح الحديث ، وعبد الحق المرسي المعروف بابن سبعين[10] ومحي الدين ابن سراقة[11] وابن عميرة[12] وغيره من أكبر علماء الأندلس المقيمين ببجاية ، فكل هذه الأسباب - في نظري - أدت بالششتري للخروج من الأندلس ، وسنبين هذا أكثر عندما نتعرض الى الأهداف التي حققها الششتري خلال رحلته الى المغرب واقامته فترة من الزمن ببجاية ، أما بالنسبة الى الطريق الذي سلكه الششتري في رحلته هذه فهو أشبه بالغامض ، فأقوال مترجمي حياته متضاربة ، فحسب بعض المصادر انه كان قبل سفره بمالقة دون أن تعطينا تاريخ وجوده بهذه المدينة ثم تنقل مباشرة الى إقامة ببجاية ، وبعدها تنقل الى قابس ومنها الى مصر[13] وبعض من هذه المصادر تذكر مراكش وبعدها بجاية ثم تونس ثم طرابلس فمصر .

ومن خلال هذه المعلومات يتضح لنا أن الششتري ارتحل من مالقه الى بعض المدن في المغرب الأقصى ومنها الى بجاية - ان لم يكن مرّ ببعض المدن قبل وصوله الى بجاية - ثم ذهب الى قابس واستمر في تنقله حتى انتهى به المطاف الى مصر كما سيأتي معنا عندما نتعرض لوفاته . ورغم كل هذا فإن هذه المعلومات تبقى غير كافية بالنسبة لرحلته الطويلة ، لأنها لا تعطينا تاريخ رحلاته ولا مدة اقامته في كل قطر من هذه الأقطار التي زارها ، لكن الذي نستطيع أن نقوله وهو احتمال أقرب الى الواقع ، ان الششتري انتقل من مالقه عبر البحر الى بجاية مباشرة ، واحتمالنا هذا يرتكز على ما صرح به جلّ مترجمي حياته ، حيث اشاروا بالاجماع الى وجوده ببجاية والتقائه بمحي الدين ابن سراقة[14] وتعلقه بأبي مدين شعيب[15] وبعدهما التقى بابن سبعين المرسى بنفس المدينة فجذبه هذا الأخير إليه .

نعود الآن لنبحث مرة أخرى عن الأسباب الحقيقية والأكثر واقعية التي جعلته ينتقل من الأندلس الى المغرب الأوسط ويقيم ببجاية أطول مدة من إقامته في المذن المذكورة آنفا ، تقول

بعض المصادر والمراجع بأن الششتيري انحدر من عائلة ثرية وإشتغل بالتجارة وهذه المهنة جعلته ينتقل من مدينة إلي أخرى سعيا وراء الكسب المادي ، غير إن روحه القلقة لم تجد طمأنينتها فيما كان يقوم به من أعمال وأنه بدأ شيئا فشيئا ينحو نحو التصوف والزهد والإزدراء بالمادة ، و نتيجة هذا القلق الذي انتابه قرر الخروج من الأندلس إلى المغرب الأوسط وإلى بجاية بالضبط ، لكن يبقى علينا أن نتسائل لماذا اختار بجاية دون غيرها من المدن ؟ يبدو أن الرجل مال إلى الصوفية بالأندلس واحتار في من يكون القطب ليوجهه ويزيل عنه هذه الحيرة وكان اسم أبي مدين شعيب الإشبيلي يردده الكثير من علماء الأندلس ، ونتيجة ذلك قرر الالتحاق به والأخذ عنه ، لكن المصادر تقول أنه قابل أولا محي الدين ابن سراقة وتناقشا في مسائل فلسفية ذات علاقة بالصوفية ، ثم خرج من بجاية الى بعض المدن لفترة معينة ، وعاوده الحنين إليها مرة أخرى وتتلمذ بها على أبي مدين شعيب مدة لا نستطيع تحديدها ، ثم التقى في نفس المدينة مع عبد الحق المرسي المعروف بابن سبعين سنة 468هـ/1248م ، إذا نحن استفدنا من جمع شتات هذه المعلومات وبلورتها افادتين أولاهما أن بجاية كانت تعجّ بأكبر علماء الأندلس بحيث نستطيع أن نقول أنهم اقاموا مدرسة أندلسية ببجاية ، وثانيتها أن الششتري أقام ببجاية مدة أطول من اقامته بالمدن الأخرى ، وأن هذه الرحلة التي يذكرها في اشعاره هي رحلته الى فاس ومكناسة انطلاقاً من بجاية - حسب تحليلنا - حيث يقول :

شويخ من مكناس ... في وسط الأسواق يغني
واش علي من الناس ... واش على الناس مني
كذاك كنت في فاس ... وكذاك أنا هوني[16]

وحسب تحليلنا للهجة المستعملة في هذه الأبيات نجد أنها مغربية لا أندلسية . وكذلك أن كلمة (واش) تستعمل في الأندلس (اش) أما كلمة (هوني) فهي تبدو أندلسية ، كما أن هذه الأبيات تؤكد لنا بأنه خرج من بجاية الى فاس ومن هذه المدينة الى مكناسة . نعود مرة أخرى لتنقل الششتري ، فبعد فترة وجيزة خرج من بجاية نهائياً الى قابس ، لكن اقامته هذه بقابس لا نعلم عنها شيئاً . فالذي نعلمه من خلال المصادر والمراجع التي كانت في متناولنا ، هو أنه ذهب الى طرابلس وبقي بها مدة وتجول في أسواقها وبث فيها أزجاله وأشعاره غير مبال بما تقوله الجماهير ، هذا ما استطعنا أن نحصل عليه من معلومات حول أسفاره ولعلنا نستطيع أن نوضح أكثر عندما نتعرض الى ثقافته وانتاجه ، وقبل أن نختم كلامنا على أسفاره نطرح سؤالاً على

أنفسنا ونحاول أن نجيب عنه ، فلماذا خرج الششتري من بجاية رغم أنها مكان الهامه وهيامه في الوقت نفسه وبها وجد ضالته ؟ يبدو أن الششتري بعد خروج شيخه ابن سبعين من بجاية لم يطيق البقاء وحده يواجه انتقادات أعداء أستاذه هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يدفعه الشوق الى معاشرة االستاذه أكثر مدة ممكنة .

أخلاق الششتري واتجاهه الفلسفي :

يمكننا أن نستنتج مما كتبه مؤرخو حياة الششتري ، بأنه ذو أخلاق حميدة غير أن نشأته في بيت ثري - كما أشرنا آنفاً - قليل الثقافة جعلته تابعاً للبيئة التي تفرض عليه تربيتها وعاداتها ، في سن طفولته ، ثم عندما بلغ سن الرشد وأصبح يانعاً سمحت له الظروف أن يغترف من العلم والمعرفة ما يسمح له بمخالطة أهل العلم وأكبر مثقفي عصره وساعده ذلك اشتغاله بالتجارة هذه الأسباب كلها فتحت له مجالاً واسعاً ليس مادياً فحسب بل فكرياً واجتماعياً وأن هذه الظروف والتقلبات التي عاشها الششتري كان لها آثارها في أخلاقه وسولكه مع الناس ، فبعد أن كان يعدّ من طبقة الأغنياء أصبح من الطبقة الفقيرة مادياً والغنية علمياً .

لقد تخلى عن مصاحبة الأغنياء وربط علاقة متينة مع العلماء والفلاسفة . وقد عبر عن ذلك في الأبيات السابقة الذكر التي أظهر فيها سخريته بالناس أما اتجاهه الفلسفي فهو كما ذكرنا سابقاً نشأ نشأة ترف وتربي على عادات الأمراء وبدأ يغير نظرته تجاه العالم مع مرّ الزمان حتى يتجه اتجاها صوفياً محضاً وكان هذا التغيير في فلسفته أو رحلته الأولى عندما وصل الى بجاية وتقابل مع عدد من أكبر شيوخ الصوفية هناك ، ولقد كان أول لقاء في سنة 648هـ/1248م كما مر معنا . ومن هذا التاريخ نستطيع أن نقسم حياته الى قسمين : الأولى حياة أخذ وأسفار وتجارة ، والثانية حياة تصوف وزهد ، ولربما خرج عن طريق المتصوفين والزهاد في بعض الأحيان بغنائه في الأسواق ومرافقته للفقراء وهذا في نظري يعد مخالفة للدين الإسلامي ومخالفاً أيضاً لمذهب بعض شيوخه أنفسهم مثل أبي مدين شعيب الذي جاء الششتري بجاية من أجله والذي تأثر به أشد التأثير قبل مقابلته ابن سبعين المرسي ، وللشتتري آراء كثيرة سنذكر منها ما استطعنا ذكره عندما نتعرض الى أساتذته وتأثيراته في العالم الإسلامي .

أما عن ثقافته ، فلقد سبق وأن أشرنا إليها اشارة عابرة في بداية هذا المقال ، بأن أغلب من ترجم له أو أشار الى دوره كرائد للصوفية في عصره ، بأنه كان من الطلبة المحصلين ومن الفقهاء

المنقطعين ، له معرفة بالحكمة والشعر بجميع أغراضه وأنواعه ، فهو متمكن من فن التوشيح والزجل كما له معرفة بالفلسفة الإسلامية واليونانية والمنطق ، ومع ذلك فإن هذه المعلومات تبقى ناقصة لأنها لم تعط لنا فترة دراسته من بدايتها الى نهايتها كما أنها لم تأتنا بأسماء ألمع شيوخه في صباه ، ولعل بعض المتأخرين قد بذلوا جهداً في هذا المضمار يحمدون عليه وذلك في جمع تلك المعلومات والإشارات ورتبوها وخرجوا لنا بشيء جديد ، بحيث نستطيع من خلاله أن نقول أن الششتري بدأ يدرس في صباه علوم المسلمين المعروفة في عصره ، من قرآن وسنة وفقه وأصوله ، ولغة وشعر وغيره ، ويبدو أنه تعمق أكثر في الفقه وأصوله وتأثر بمدرسته الإمام الغزالي[17] وأن معرفته الدقيقة بالسنة والفقه جعلته يتقرب من العلماء والفقهاء .

لكن يبدو أن الششتري نشأ مالكياً بحكم دراسته الأولى المذهب المالكي غير أن اجازته في المستوصف تدل دلالة واضحة على أن الرجل درس فيما بعد المذهب الشافعي بعمق واطمأنت نفسه الى كتاب في أصول هذا المذهب ألفه أحد الأقطاب ، وهو الإمام الغزالي رحمة الله – ومن المحتمل أن يكون الششتري اختار هذا الكتاب بالذات تحديا للفقهاء سواء كانوا مالكيين أم غير مالكيين أم غيرهم وقد عبر عن هذا التحدي في اشعاره التي حفظت لنا المصادر البعض منها والتي سنقدمها فيما بعد ، هذا بالنسبة لتأثره بقطب من أقطاب المشرق الإسلامي ، أما عن شيوخه في المرحلة الأولى من دراسته فإننا لا نعلم شيئاً من ذلك ، لكن نرجح أنه درس عن عدد لا بأس به من أكبر علماء عصره في موطنه الأندلس ، ثم في المغرب العربي كما مر معنا ويبدو أنه درس الأدب العربي دراسة دقيقة وقصائده تثبت ذلك أما موشحاته وأزجاله فتدل دلالة واضحة على تعمقه في الأدب الأندلسي خاصة ، سواء ما كتب باللغة الفصحى أم باللغة العامية وخاصة أشعار ابن قزمان (555هـ/1120م) واحتك بالأوساط الفنية بحيث كان يعزف على العود بمهارة فائقة ، كما درس الششتري الفلسفة ومذاهبها ووظفها في أزجاله وموشحاته الدقيقة وخاصة عندما وصل الى مبتغاه على يد أستاذه ابن سبعين لكن بعض الباحثين المتأخرين يخالفون هذا الرأي ويقولون أن صاحبنا لم يدرس الفلسفة دراسة موضوعية ، بل درسها دراسة ذاتية أي من حيث أداة تؤيد فكرة الصوفية لأنه لم يؤلف كتاباً فيها مثل أستاذه ابن سبعين[18] لكنه ترك لنا بصماته في أزجاله وأشعاره تبيّن على أنه استخدمها وأحسن استخدامها ، وكصوفي أنكر أداة الفلسفة الكبرى ، وهي العقل ومناهجه ، كما أنكر التعريف المنطقي واعتماد الدليل واقامة المقدمات لاستخراج النتائج أو بمعنى أوضح وضع المقدمات في

القياس للوصول الى كنه الأشياء أو جوهرها[19] أما التصوف فقد درسه ودرس رجاله وأول من اتصل به من الأساتذة في هذه المادة هو محي الدين بن سراقة الشاطبي (حالياً تدعي «خاطبة» (JATIVA) 662هـ/1261م ، ثم واصل دراسته من خلال اقامته ببجاية وملازمته لحلقات الشيخ أبي مدين شعيب ووصل الى الأوج على يد شيخه الأكبر ابن سبعين المرسي .

ونظراً لهذه المعلومات فإننا نستطيع أن نقول أن الحقبة الأولى من دراسة الششتري تبدو غامضة وذلك لعدم معرفة شيوخه بأسمائهم ، والحقبة الثانية واضحة سواء من حيث الأسماء أو الزمان والمكان ، كما استطعنا أن نخرج بنتيجة مفادها أن صاحبنا دخل التصوف ببجاية وعلى يد هؤلاء الأندلسيين الثلاث ، الشاطبي والإشبيلي وآخرهم المرسي .

ونرى هذه الآثار وانعكاساتها على كتابته فأثر محي الدين بن سراقة في كتابه «الإنالة العلمية» وأثر أبو بومدين شعيب في أشعاره الأولى - في الفترة الأولى من حياته - ثم أثر فيه ابن سبعين المرسى في باقي حياته .

تلك هي دراسة الششتري وهي تعطينا نظرة تكاد تكون شاملة عن حياته الأولى كيف نشأ في نعيم وترف ، ودرس العربية وآدابها في القديم والحديث في الفصحى والعامية ثم الفقه والتوحيد حتى وصل الى درجة تؤهله إلى دراسة الفلسفة القديمة والحديثة والإغريقية والإسلامية ثم اتخذ الصوفية مذهبا على الطريقة المدينية حيث جعلته يقطع علاقته بماضيه ويترك التجارة ثم بعد ذلك نراه يتقابل مع الأستاذ ابن سبعين في بجاية عام 648هـ/1248م ويتحادثان معاً ، ولما انتهينا من حديثهما وهم الششتري بالإنصراف سأله ابن سبعين الى أين هو ذاهب ؟ فذكر له الششتري أصحاب أبا مدين فصرخ فيه ابن سبعين صرخة رهيبة ، قائلاً له : «إن كنت تريد الجنة فأذهب الى أبي مدين ، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إلي !»[20] .

وهنا امتلكه ابن سبعين امتلاكاً كاملاً . ولقد عبر الششتري عن هذا كله في موشحاته التي أرسلها الى ابن سبعين فيما بعد الى مكة المكرمة ، والتي مطلعها :

قل للذي ملكني ملكه ... وغبط الجسم بالسقام
لولى استوى قربي منك وبعدي ... قد كان مت منك من الغرام
يا من سرى سرّه في طباعي ... أنت القريب مني البعيد
ومن أعجب الأشياء وأنت معي ... وعشقي فيك كل يوم يزيد
وأنت بتهتيكي وانطباعي ... غرامي دائماً فيك جديد

إن نوع هذه الأبيات - حسب ما نراه - زجل ، ولغتها من الفصحى وهو يتغزل فيها بشيخه عبد الحق بن سبعين المرسي ، عندما ذهب هذا الأخير الى مكة المكرمة وبقي الششتري ببجاية ، واذا نحن أخذنا هذه القصيدة دون معرفتنا لصاحبها لقلنا أنها قصيدة غزلية يشكو فيها الشاعر من هجر الحبيب .

وفي قصيدة أخرى من نوع الزجل وأساسها فعولن فعولن ، وتتسم باللهجة الأندلسية المغربية ، يتغزل فيها الشاعر بشيخه السالف الذكر يقول :

لـــذا الحـب عنـــدي مقـــام عظيـم
وأنـــه كلـــوا لمـن لـــو صبـر
فمـن بلـي منكـم بهـــذا الهـــوى
يصبـر ولا يجعـــل لـــداؤ هـ دوا
وصـــالـــوا وهجـروا هـ عنـــدي ســـوا
إن كـــان حبيبـــك بقلبـــك مقيـم
فـــلا شـيء تشكـــو هجـروا متـى هجـر
لـم قـــط هجرنـي حبيبـي أنـــا
ولا جـــار عليـــا ولا قـــد جنـى
يعمـــل اش يعمـــل هـ عنـــدي المنـى
وصـــالـــوا وهجـروا جعلتـــو نعيـم
وأنـت يـــا عـــاقـــل أنظـر ذا النظـر
لا تبصـر مفـرق التفريـــق محـــال
وتجعـــل لحبـــك هجـر ووصـــال
مـــا هـــو إلا واحـــد وبغيـر انفصـــال[21]

وفي قصيدة أخرى طويلة جداً ، وهي من الزجل ، الأساس : مستفعلن مستفعلن ، بلهجة أندلسية مغربية .

أسمع كلامـا مـا ملتقـط أفهمني قـط أفهمني قـط
أش قـالي واحـد علّـه
ذا المعنى أفهم شرحـه
أش اسم حبّـك قلت هـو

اسم المليح مـــا يختلـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
محبـــوبي قـــد عمّ الـــوجـــود
وقـــد ظهر في بيض وســـود
وف نصـــارى مـــع يهـــود
وف الحروف وف النقـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
وف النبـــات وف الجمـــاد
وف البيـــاض وف الســـواد
وف القلم وف المـــداد
وليس في هـــذا غلـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
محبـــوبي مـــا مثلـــه قرين
عرفتـــه حقـــا يقين
لم يحتجب للعـــارفين
ف كل شيء قـــد اختلـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
عرفتـــه طـــول الـــزمـــان
ظهـــر لـــي فـــي كـــل أوان
وف الميـــاه وف الـــوديـــان
وف الطلـــوع وف الهبـــوط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
أنـــا بحبي مغتبـــط
وف علـــوم ترتبـــط
وقـــد ظهر بـــلا غلـــط
من ذا الفضـــاء وف الشطـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
دع عنـــك عـــالم الخيـــال
واحـــذر تشـــاهـــد لـــو مثـــال
فمـــا ترى أنت محـــال
بـــه وجـــودك ارتبـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
يـــا صـــاحبي يـــا صـــاحبي

لا تلتفت لقـــــــــــالبي
وأشهـــــــد ترى عجـــــائب
في بحر مـــا لـوقـــط شـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
سر الـــــــوجـــــــود في جملتي
وغيبتـــي فـــي حضرتـــي
وحجبتـــي فـــي قربتـــي
أصغي لمـــا في ذا النقـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
وإذ تغيب عن الـــــوجـــــود
وتفنى حقـــــاً في الشهـــــود
فـــــلا رسم ولا حـــــدود
ولا طرف ولا وســـط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
فحـــط قلبـــك للرجـــال
تكن بحضرة الـــوصـــال
وتكسي حلـــــة الكمـــال
تقعـــد بهـــا على البســـط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
بـــدت لـــلأكمـــه النجـــوم
ليس هـ ذا ذوق العمـــــوم
ومن لا يبلـــغ الحلـــوم
المعنى عنـــوا قـــد سقـــط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
شفـــائي في لعقـــة عســـل
وآيـــة منهـــا الأمـــل
بشرط فهم ذا المثـــــل
وتـــأخـــذوا ممن شرط أفهمني قـــط أفهمني قـــط
في ذا المقـــام فني المقـــال
وغـــايـــة أحـــوال الرجـــال
فـــلا اتصـــال ولا انفصـــال

وليس في قـــولي شطـــــط أفهمني قـــــط أفهمني قـــــط
إن شئت تفهم ذا الكـــــــــــــلام
وترتقي عن ذا المقـــــــــــــام
أقطـــع خيـــــالات الأنـــــام
وقـــل هـــو الله فقـــــط أفهمني قـــــط أفهمني قـــــط[22]

فبعد عرض هذه القصيدة نستطيع أن نصل الى نتيجة هي أن الششتري أراد من خلالها أن يقنع القارئ والسامع على حد سواء بأنه ليس ضد العقيدة الإسلامية وإنما هو يحاول أن يقرب بين الأديان السماوية الثلاثة بعضها البعض دون أن يقلل من شأن الإسلام بل يجعله خاتمة الأديان . وفي القصيدتين السابقتين نراه يتقرب الى أستاذه ابن سبعين فيجعله المرشد والهادي الى الطريق الأفضل ، ويغالي في مدحه وتعظيمه حتى يكاد يوهم القارئ بأنه يتغزل بمعشوقة ما ، سلبته لبه وجعلته لا يفكر في أي شيء ما عدى هي وظلها وسحرها وقدرتها على امتلاك عقول البشر ، وأن الششتري عميق الفلسفة ملم الأديان الثلاثة . الإسلام والمسيحية واليهودية وبعبارة أخرى فهو فقيه متبحر في الفقه وأصوله ومحدث لا يستهان به وشاعر ممتاز وزجال ماهر وفيلسوف متضلع عليم بفلسفة اليونان والرومان والفلسفة الإسلامية على اختلاف مدارسها وعازف على العود يطرب الجماهير بنغماته ويلهيهم عن دنياهم برقصاته وأخيراً يحسن الكثير من اللهجات والعادات المنتشرة في أرجاء الوطن الإسلامي .

لقد نقل لنا الأستاذ النشّار إلى درس شخصية الششتري دراسة وافية ، حيث قدم لنا بعض المعلومات التي لربما لم نستطيع أن نحصل عليها في مصدر أو مرجع آخر وهي بالتالي ألقت أضواء كثيفة على شخصية الششتري حيث تبرز لنا تأثير ابن سبعين الشديد في شخص الششتري ، يقول الأستاذ النشار : «يدعوه كعبة الحسن ، وكنز حياته ، وبدرها ، ومحي الرسم ، ومحد الذات ، ووارث العلم ، وذات الخير ، وكمية السعادة ، وأكاسير الذوات ، ومغناطيس النفوس ، وهي عبارات أطلقها الششتري في مواضيع كثيرة على الله أو محمد الأعلى[23] ومن هنا نستطيع أن نقول أن الششتري انقاد بكل جوارحه الى ابن سبعين ، ولقد عبر هو نفسه بأنه عبد ابن سبعين ، وأطلق على نفسه السبعيني رغم أنه أكبر سنا منه .

وإذا عدنا مرة ثانية الى اللقاء الأول الذي تمّ بين ابن سبعين والششتري أو اعتناقه السبعينية وتخليه عن المدينية ، نقول أن أول لقاء تمّ بين الرجلين كان له تأثير عميق في نفس

الششتري وفي اليوم الثاني نرى أن انقياد التلميذ كليا الى شيخه حيث اعطاه راية وطلب منه أن يدخل السوق وينشد :

بـــــــــــديت بـــــــــــذكر الحبيب وعيش يطيب

وأن يكمل التلميذ من عنده ، فأطاعه الششتري ودخل السوق لكن لم يفتح عليه الله بشيء لمدة يومين متتاليين ، وفي اليوم الثالث كان الششتري في حالة سكر كامل فصاح في السوق :

بـــــــــــديت بـــــــــــذكر الحبيب وعيش يطيب
لمـــــــــا دار الكاس مـــــــــا بين الجـــــــــلاس
وحيتهم الأنفـــــــــــاس عنهم زال البـــــــــــاس
سقـــــــاهم بكاس الرّضـــــــا عفـــــــا الله عمـــــــا مضى

أشرب يـــــــا نـــــــديمي وطيب وعش في أمـــــــــــاني الحبيب
ووســـــع لنـــــا الفضـــــاء عفـــــا الله عمـــــا مضى[24]

ومنذ ذلك الحين والششتري ينتقل من مكان الى آخر وحيداً أو مرفوقاً بجماعة من الفقراء ، يجوب الأسواق ويغني ، وتذكر بعض المصادر أن الششتري اجتمع بالنجم بن إسرائيل[25] الدمشقي سنة 560هـ ولا نعلم ماذا جرى بينهما في هذا اللقاء وبعد موت شيخه ابن سبعين انفرد الششتري بالرياسة والإمامة على الفقراء المتشردين فكان يتبعه ما ينيف على الأربع مائة فقيراً[26] .

إذا فنحن امام شخصية كهذه تحتاج الى دراسة وافية نظراً لما تركته من آثار في المجتمع الإسلامي شعراً ونثراً كما سيأتي معنا . أما اذا نظرنا الى انتاجه الذي وصل إلينا في مصادر مختلفة دون أدنى ترتيب أو تبويب ، فإننا نجده ترك إنتاجاً خصباً لا يستهان به ولا يستطيع أن يستغني عنه أي باحث للمذهب الصوفي ، وانتاجه يبدو في جميع المجالات سواء في الزجل والموشحات والشعر على العموم كما في النثر ، فهو قادر على التعبير عنها سواء بالفصحى أم بالعامية ، وأن أغلب من كتبوا عنه اتفقوا على قدرته في المجالات المذكورة آنفاً ، رغم أنه - كما أشرنا سابقاً - بأن كل مصدر تناوله من جانب واحد ، فمثلاً القاضي الغبريني في عنوانه[27] لم يذكر كل إنتاج الرجل بل اكتفى بالاشارة الى بعض إنتاجه ونتف من شعره ، وأهمل عناوين كتبه ، فالقصائد التي نقلها لنا الغبريني نذكر منها هذه المقطوعة :

لا تلتفت بـــالله يـــا نـــاظري لأهيف كالغصن النـــــــــاظر
يـــــا قلب واصرف وهم النقـــــا وخـــل عن سرب حمى حـــاجر
مـــا لسرب مـــا البـــان ومـــا لعلـع مـــا لخيف مـــا ظبي بني عـــامر
جمـــــال من سميتـــــه دائر مـــا حـــاجـــة العقـل بـــالـــدائر
وانمـــا مطلـــوبـــة في الـــذي هـــام الـورى في جنســـه البـــاهر
أصبحت فيـــه مغرمـــاً حـــائراً لله در المغرم الحـــــــائر[28]

وفي هذه الأبيات نستطيع أن نرى بوضوح تـأثير ابن سبعين وسيطرتـه على تلميـذه ، حيث أن ابن سبعين كان يطلق على نفسـه مصطلح (ابن دائره) ، وهـذا مـا نلاحظـه في البيت الرابع من هذا المقطع حيث يسميه تلميذه بهذا الإسم .

ولقد مدنا الأستاذ أحمد المقري بقائمة من بعض مؤلفات الششتري فيقول : «له كتـاب العروة الوثقى في بيـان السنن واحصـاء العلـوم ومـا يجب على المسلم أن يعلمـه ويعتقـده الى وفـاتـه» . وكتاب «المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية» . وكتاب آخر «الرسالة القدسية في توحيد العـامـة والخاصة» وكتاب رابع «المراتب الإيمانية والإسلامية والإحسانية» وخامساً «الرسالـة العلميـة» ولـه ديوان شعر[29] ، أما ديوان الشعر فقد نشرو تصفحته محققـا ، وأمـا الكتب المـذكورة فلم استطع أن أعثر عليها ولا أعلم إن كانت قد حققت أم لم تحقق بعد .

ولقد اقتطفت بعض المقطوعات الشعرية من ديوانه للتـدليل على تـأثره بـابن سبعين يقول في إحدى قصائده[30] :

لقـد تهت عجبـاً بـالترجيـد والفقر فلم أنـدرج تحت الـزمـان ولا الـدهر
وجـاءت الى قلبي نفحـة قـدسيـة فغبت بهـا عن عـالم الخلـق والأمر
طـويت بسـاط الكـون والطي نشره ومـا القصـد إلا الترك للطي والنشر
وغمضت عين القلب غير مطلـق فـاليتني ذلـك القلب بـالغير
وصلت لمن لا تنفصـل عنـه لحظـة وترهت أعني عن الـوصـل والهجري
ومـا الـوصف إلا دونـه غير أني أريد يديـه التشبث عن بعض مـا أدري
وذلـك مثـل الصـوت أيقـظ نـائمـاً فـأبصر أمراً جـل عن ضـابـط الحصر

هذه مقطوعة من قصيدة طويلة أردنا أن نختصر منهـا مـا يـدل على انقيـاد الششتري الكلي الى أستاذه ابن سبعين .

أما الذي نقله لنا الأستاذ المقري من قصائد الششتري واعتبرها أحسن قصائد فنأخذ منها بيتين :

أرى طالباً منا الزيادة لا الحسن بفكر رمى سهماً فعد فعدّ به عدنا
وطالبنا مطلوبنا من وجودنا تغيب به عنا لدى الصعق أن عنا

ولقد علق المقري على هذه القصيدة بقوله : «إنها قصيدة طويلة ومشهورة في الشرق والغرب معاً» وأن الشيخ زروق[32] قد قام بشرحها ، كما أن لسان الدين ابن الخطيب قد علق عليها أيضاً ، في احاطته ، قائلاً : بأنها لا تخلو من شذوذ من ناحية اللسان وضعف في العربية ومع ذلك فإنها غريبة المنزع[33] ومهما يكن فإن الششتريّ له أشعار كثيرة لا يتسع المكان ها هنا لذكرها ، وإنما الذي نقدمه هنا هو عبارة عن نماذج يمكن أن تلقى بعض الأضواء على شخصيته .

والمتتبع لاشعار الششتري يرى وكأنها كانت أجوبة ، أو بمعنى أدق رداً على كل الاستفسارات والاتهامات ، وفعلاً قد تكلم الناس فيه سواء الطبقة المثقفة أو المتعلمة والعوام على أنه أصيب بنوع من الجنون أدى به الى الرقص والغناء في الشوارع والساحات العامة ، يغطي جسمه النحيف بشملة ويتأبط آلته ، فالواقع أن روحه كانت تحلق في أجواء ربانية أخرى كأنها قطعت علائقها مع المجتمع الذي تعيش فيه ، ومن بين القصائد التي يعترف فيها شاعرنا بما أصابه من سقم نتيجة افراطه في حبه لمعبوده ولفنونه أيضاً ، فيقول :

البحر الكامل :

رضي المتيم في الهوى بجنونه خلوه يفني عمره بفنونه
لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ليس السلو عن الهوى من دونه
قسما بمن ذكر العقيق من أجله قسم المحب بحبه ويمينه
مالي سواكم غير أني تائب عن فاترات الحب أو تلوينه
مالي اذا هتف الحمام بأيكه أبدا أحنّ لشجوه وشجونه
واذا البكاء يغير دمع دأبه فالضب يجري دمعه بعينه[34]

ويبدو أنه بدأ يبتعد عن كل مثقف وخاصة الفقهاء منهم ، بحيث نراه يوجه لهم انتقاداً لاذعا مشحوناً بالكراهية الشديدة لهم ويعتبر كل ما يصدر منهم هو تثبيط لعزيمته وقيد يقيده في أقواله وتصرفاته ، وهذا يظهر في أزجاله وأشعاره التي أمطرهم بها ، فيقول في بيت من الزجل[35] :

قـــولـــوا للفقيـــــه عني عشـــق المليـــح فنّي

ومنذ أن بدأت الحرب بينه وبين الفقهاء فإنه أعطى رأيه فيهم بصراحة ورماهم بالجري وراء المادة والمناصب والتقرب الى السلاطين والملوك ، وأنهم ليسوا مخلصين في أقوالهم ، ووصفهم بأشباه الجهلة المكبوتين المحرومين ، ومن القصائد التي وجهها لهم ما يلي :

البحر الخفيف :

طـاب شرب المـدامـة في الخلـوات أسقيني يـا نـديمي بـالآنيـات
خمرة تركهـا علينـا حرام ليس فيهـا اثم ولا شبهـات
عتقت في الـدنـان من قبـل آدم أصلهـا طيب من الطيبـات
أفتيني أيهـا القـاضي وقـل لي هـل يجـوز شربهـا على عرفـات ؟
أو يجـوز الطـواف والسعي فيهـا ويلبي ويرمي بـالجمرات
أو يجـوز القرآن والـذكر فيهـا أو يجـوز التسبيـح في الصلـوات
فـأجـاب الفقيـه إن كان خمر عنب فيـه شيء من المسكرات
شربهـا عنـدنـا حرام يقينـا زائـد فيـه من الشبهـات
آه ، بـاذا القـاضي لـو ذقت منهـا وسمعت الألحـان في الخلـوات
لتركت الـدنيـا ومـا أنت فيـه وتعش هـائمـاً ليـوم المات[36]

نلاحظ في هذه الأبيات سخرية لاذعة موجهة الى الفقهاء مباشرة ، وتمس مقدسات المسلمين ، وهذا الذي أشرنا إليه سابقاً وقلنا أنه خرج عن المألوف والمحرف عن طريق أساتذته ، كما نلاحظ في بعض أزجاله مدى تأقلمه بسرعة في كل مجتمع حل به فاستطاع أن يقلده في لهجته وتوظيف الألفاظ المستعملة في الوسط الذي يخاطبه ، وإذا كان الششتري قد هاجم الفقهاء بطرابلس بالقصيدة المذكورة ثم رحل منها دون أمل في العودة الى القطر المجاور - مصر - واعتكف بجوار الأزهر مدة من الزمن ، وقال أشعاراً وأزجالاً وصف فيها حالته النفسية والمادية بدقة ، وهي لاشك تعد من أهم الوثائق التي تصف لنا تلك الحقبة ، كما أن هذه الأزجال تعتبر مادة خاما يستطيع أن يغرف منها الأديب والمؤرخ على حد سواء وحتى اللغوي وصاحب علم الاجتماع ، يقول في أحد أزجاله :

مـــا نجـــد خليعـــاً مثلي حرفتـــه الكأســـات والأدنـــان
معتكف في جـــامـــع أزهر مختلي في شـــق ثعبـــان

وبقيت عـــــاشـــق مهتـــــك ننظم الـــــزجـــــل والأوزان[37]

ولقد كان دخول الششتري حسب ما ذكرته بعض المصادر بعد محنه شيخه ابن سبعين فيها والذي طرد منها بتأثير من القطب القسطلاني (686هـ/1267م) فرحل ابن سبعين الى مكة المكرمة ، وأقام بها[38] ولقد كان الششتري منذ الوهلة الأولى التي التقى فيها ببجاية مع ابن سبعين طائعاً منفذاً لكل أوامره ، وظل في اتصال به حتى أن توفي ابن سبعين ، فنرى الششتري دائم المراسلة لأستاذه ، لقد بعث له برسالة يطمئنه على أنه لازال سائراً في الطريق الذي رسمه له ، وذلك من خلال الوشح الذي أرسله له ، والذي سبقت الإشارة إليه ، ومطلعه :

قـــل للـــــذي ملكني ملكـــــه وغبـــــط الجسم بـــــالسقـــــام

ثم بعد هذا الموشح نرى متصوفنا يشد الرحال الى المشرق (والى مكة بالذات) حيث يقيم أستاذه ابن سبعين ، غير أننا لم نحصل على معلومات تحدد لنا المدة التي قضاها في مكة ، فكل ما لدينا من معلومات حوله هي أنه حج مرات عديدة .

والآن قبل أن نختم تتبعنا لخطوات الششتري من مسقط رأسه الى مكة نفضل أن نقدم خلاصة عن كل ذلك .

لقد رأينا الششتري بادء ذي بدء تاجراً متجولاً من مدينة الى أخرى ، ثم فقيهاً ثم صوفياً مغالياً في صوفيته ، لقد خرج من الأندلس مولياً وجهة الى المغرب الذي مكث فيه مدة وبه اعتنق الصوفية مذهباً ، ثم بدأ رحلته الى المشرق عبر عدة مدن مغربية كما مرّ معنا الى أن انتهى به المطاف بمكة التي لا نعلم المدة التي أقام بها ثم عاد الى مصر واستقر بدمياط حيث كانت الحرب الصليبية على أشدها ، وبدمياط نجد الششتري يرمي آلته الموسيقية ويكف عن نسج القصائد والأزجال ثم يشمر عن ساعديه ويتخذ مكانه في الصفوف الأمامية كرجل حرب يدافع عن دينه وعن أمته ويظهر للقساوسة ورجال الدين المسيحيين بأنه إن تسامح معهم وزارهم في أديرتهم فانه لا يمكنه أن يتغاظى عن تلك النوايا التي تريد أن تعصف بكل ما له صلة بملته وأمته ، وفعلاً قد حارب الششتري الصليبيين بكل ما لديه من قوة مع رجاله في سنة 1249م واتخذ له رباطاً هناك ، هذا الرباط الذي يقول عنه الأستاذ سامي النشار أنه ورثه الشاذليون بدمياط فيما بعد[39] ، ويضيف نفس المرجع على أن الششتري ذهب الى الشام سنة 650هـ/1252م وعاش في رباط «القلندرية» وهناك قابل النجم ابن اسرائيل الشاعر الصوفي الذي سبق وأن أشرنا إليه في مقالنا هذا ، وأعجب كلا منهما بالآخر إعجاباً شديداً ومنذ ذلك

الحين بدأ الششتري ينتقل رفقة الفقراء بين بادية الشام ودلتا مصر ، يعيش في رباط أو ينزل بجانب دير من الأديرة ، وأن أشعاره مليئة بزيارة الأديرة ورؤية الرهبان والشمامس والأيقونات والصور ، واستمع الششتري الى أغانيهم وترتيلاهم ، ووصفهم في أشعاره وأزجاله وصفاً دقيقاً ، وناقش معهم في الخمر المعصورة وغير المعصورة وأحل فكرة تناول القربان المقدس الى فكرة صوفية لطيفة[40] .

مناصبه : لم نعثر على أي أثر في جميع المصادر التي اعتمدناها في بحثنا هذا ، يثبت أن الششتري شغل منصباً ما ، اللهم إلا ما أشار إليه الأستاذ سامي النشار[41] عندما تعرض الى إقامة الششتري بطرابلس وعرض عليه منصب قاضي ، فرفض وبعدها اتهم بالجنون وردّ عليهم الششتري بالقصيدة الموجهة الى الفقهاء عامة ، أما من حيث التدريس فلم تشير إليه أغلب المصادر ما عدا القاضي الغبريني الذي أشار الى ذلك إشارة عابرة ، بأن صاحبنا كانت له بعض الحلقات في المدينة التي ألهمته الى ما كان يصبو إليه . وقد ظل الششتري متمسكاً بفلسفته وزهده الى أن أصابه مرض بدمياط ، فسأل الفقراء عن المكان الموجود به فقالوا له : الطين ، فتبسم وقال كلمته المشهورة : «حنت الطينة الى الطينة» . ثم أوصى بأن يدفن بمقبرة دمياط ، وفعلاً عندما توفي حملوه رفاقه الفقراء على أعناقهم إليها ودفنوه وذلك سنة 686هـ .

الششتري وآثاره في العالم الإسلامي

لقد ترك الرجل آثاراً لا تمحى في أنحاء العالم الإسلامي ، واذا نحن تتبعنا خطواته مبتدئين بالأرض التي ولد عليها وهي الأندلس ، نجد حسب روايات عديدة بأن ابن الخطيب اللوشي الغرناطي (776هـ/1374م) نظم الشعر على طريقة الصوفية ، وانحنا منحى الششتري . على أن الششتري استطاع أن يكون مدرسة صوفية تترك آثارها من الأندلس الى مراكش ، حيث نجد فقرة لابن عباد الرندي (نسبه الى مدينة روند) الصوفي المشهور (790هـ/1388م) في كتابه «الرسائل الكبرى» ينصح صوفية مراكش بقراءة مقطوعات الششتري الملحونة ، وبفضله على أستاذه ابن سبعين[42] .

ثم نراه يترك آثاره في المغرب الأوسط وفي بجاية بالذات ، ونلتمس هذا التأثير في كتاب القاضي الغبريني «عنوان الدراية: ، ونجد تأثيره في صوفية طرابلس ومنها الى مصر والشام كما سيأتي معنا عندما نتعرض الى أزجاله المتأثرة بلهجات الأقطار التي زارها .

واذا عدنا مرة ثانية الى أزجاله وموشحاته الأولى فنجدها ذات طابع أندلسي ولهجة أندلسية أيضاً ، ثم تأتي الأزجال المتأثرة باللهجة المغربية (وان كان أنه من الصعب التفرقة بين اللهجة الأندلسية والمغربية) .

يقول :

جيت من البداية حتى ربيتني عدت للنهاية
لما زالت أستاري ربت بيا ليّا

وفي مقطع آخر يقول :

قد لاح ليّا منى بدا عجيب
حتى ريت أني عن حضرتي لنعيب

وفي مقطع آخر يقول :

لو كان ذا عقل في الناس كان يكون عقلي ملكتو
مولتي لعبت با جناس من قوى شى يعصي ستو[43]

ومهما يكن فإن أغلب الألفاض المستعملة في هذه المقاطع فانها أندلسية والكثير منها مستعملة في الأقطار المغربية ، وبالأخص المغرب الأقصى والغرب الجزائري ، وحسب الدكتور النشار فإن أغلب الألفاظ استعملها ابن قزمان في أزجاله وأشعاره ويظيف النشار بأنها موجودة في أزجال بعض المصريين ولم يصرح من أيهم الأسبق . وهناك مقطع آخر من أزجال الششتري يبدو أنه ذو صبغة أندلسية مغربية .

يقول :

أطيب ماه أوقاتي حين تكون مجموع مع ذاتي
حين نكون مع ذاتي مجموع
شمس أنسى مني تطلوع
ويجيبني فقري مطبوع

زرني لسعدي من هو شممة في الملاح
فرجلي همّي وصدري دأبا في انشراح
بخوت يا قوم الحيلة في الحب إش تفيد
واش ينفع العوم والبحر واسع مديد[44]

وإذا لاحظنا هذه الألفاظ المستعملة نجدها أندلسية مغربية ، ولم تزل بزوال الأندلس بل هي لازالت مستعملة على نطاق واسع في المغرب الأقصى وبعض المناطق من الحدود الجزائرية المتاخمة لحدود المملكة المغربية وموجودة في أزجال ابن قزمان أيضاً منها .

وخـــا م عـــاد نراك يـــا غـــدار تحتـــــــاج القصـــــــار
قـــوم دلـــوني دار الخمّـــــار فـــي درب النّصـــــــار
كـويّـــس مـــلا مـــن مسطـــار نعطـــي فيـــه البشـــار[45]

هنا يبدو أنه يعاتب إنساناً ليست له تجربة في الحياة ، فهو مادة خام يحتاج الى تصنيع فكلمة القصارة تعني مدق ، ومطرقة من خشب يستخدمها القصارون ، والمقصود من ذلك يقول لمعاتبة ليس عندك علم ولا حكمة ولا إشارات صوفية ، فأنت خال من التجربة في هذا الميدان وبذلك تحتاج الى مدقة لكي تصقل بها كما تصقل الألوان[46] ، وفي البيت الثالث توجد كلمة «كويس» و«مسطار» فالأول تصغير لكأس والثانية أندلسية بحتة مأخوذة من اللاتينية ، ولازالت مستعملة الى يومنا هذا بمقاطعة الأندلس وتعني سواء بالعامية الأندلسية في عصر الششتري أم اليوم ، عصير العنب الخالي من المادة الكحولية (موسطو) واذا أخذنا هذه الكلمات في مجملها فاننا نجدها أندلسية مغربية ما عدا كلمة (مسطار) التي لربما لم يعرفها أو بالأحرى يستعملها شعراء المغرب العربي في أشعارهم ، وخلاصة القول أن هذه الأبيات قيلت في الأندلس .

وهنا مقطوعة أخرى تبدو أندلسية مغربية ، أي لا توجد فيها كلمة واحدة غير مستعملة في المغرب العربي ، فيقول :

ذا الـــــذي نعشـــق نعم هـــو قـــد عشقنـــي باختيـــارو
من قـــــديم هـ عشقـــوا ذاتي وأنـــا ســـاكـــن بـــــدارو
ليس شيء يخرجني عنـــــــوا إذ ثـــم دار لغيـــرو
كل شيء ظهر لي منـــــــو حتـــى شـــروا عـــاد وخيـــروا
كل شيء صـــــدر لي عنـــو حتـــى مسجـــدو وديـــروا[47]

أما عن مفهوم هذه المقطوعة ، فتبدو عسيرة الفهم ، بحيث لم استطع أن أجزم بأنه يعني أستاذه ابن سبعين أم الله الواحد القهار .

يبدو أن الششتري بعد أن طاف عدة بلدان مغربية ولم يجد من يؤيده في فلسفته وعلى

الأقل يتفهمها ، فإنه بدأ يطلق ألغازاً فلسفية يصعب على القارئ في أغلب الأحيان تفكيكها فله قصيدة من هذا النوع ، فيقول فيها :

الألف واحد هـ كلو والحروف منو ظهرات
خل أنت الباء مع التاء عن ذات الألف صدرات
وكذلك اللام مع الياء من وجودها انفجرات
أنت هو الألف والأحرف في وجودها انحشرات
والعوام كلها منك بعدما غارو وفارو[48]

أما أزجال الششتري في طرابلس فبدأت تفقد شيئاً فشيئاً صبغتها الأندلسية وتلتقط بعض الكلمات الطرابلسية ، ومهما يكن فإنني دون الأستاذ النشار بكثير في فهم هذا الفن ، ولكن لاحظت عليه أنه تغافل - لا أعلم عن قصد أم غير قصد - اللهجة المغربية الأوسطية وبالتحديد لهجة أهل بجاية تلك المدينة التي أقام فيها الششتري أكثر من غيرها من المدن المغربية ، واعتنق فيها المذهب الصوفي ، واشتهر بها أيضاً ذلك لأنني اعتقد بأن اللهجة تختلف من مكان الى آخر ، مثل ما هو الشأن بين المغرب الأقصى وشرق المغرب الأوسط ، ولربما تختلف من مدينة الى أخرى . كما نعلم أن بجاية كانت في عصر الششتري تنتمي سياسياً الى تونس ، وفي نظري اذا أردنا أن نتكلم على اللهجات يحسن بنا أن نرسم خارطة تحدد لنا اللهجة المستعملة في مكان دون الآخر ، واذا عدنا الى ما ذكره الأستاذ النشار عن الأزجال المتأثرة باللهجة الطرابلسية المتمثلة في البيتين التاليين :

كيف يسلو من قد بلى عن هواه أو يغفل
أشغف القلب حبه بأهل ودي وين العيش لي

ويعلق الأستاذ النشار على هذين البيتين بقوله أن كلمة (وين) بمعنى أين ؟ هي كلمة عربية بدوية مستعملة في صحراء طرابلس وصحراء مصر[49] . والواقع أن هذه الكلمة مستعملة بكثرة في الجنوب الشرقي والشمال الشرقي أيضاً ، في القطر الجزائري وفي تونس منذ القدم وهي في جميع الأغاني التونسية .

واذا تجاوزنا هذا وتتبعنا الششتري خطوة بخطوة انطلاقاً من طرابلس الى مصر فلا نجد للهجة المصرية أثراً في أزجاله - في المصادر والمراجع التي في متناولنا - ما عدا الأستاذ النشار الذي يؤكد ذلك ، لكنه لم يأت بدليل قاطع يثبت قوله ، أما وجود الششتري في الحجاز الذي

أثبتته أغلب المصادر ، واهملت أزجاله وأشعاره ، ولربما أنه لم ينتج هناك ، لكن الأستاذ النشار أشار في مقاله الى قصيدة شعرية للششتري على وزن البحر الكامل تتضمن تسعة أبيات ، وهي كالتالي :

للعيش شوق قادها نحو السرى ... لما دعا اجفانها داعي الكرى[50]
أرخ الأزمة واتبعها انها ... تدري احمى النجدى مع من درى
حث الركب فقد بدت سلع لنا ... وانزيمين الشعب من وادي القرى
اشتم ذاك الترب اذا ما جئته ... تلقيه عند الشتم مسكا ادفرا
فاذا وصلت الى العقيق فقل لهم ... قلب المتيم في الخيام قد انبرى

ففي هذه القصيدة نرى أن النزوة العربية التي ترتبط - مهما بعد به المكان والزمان - بالأرض المقدسة ، اشتعلت في نفس الرجل وملأت عليه نفسه ، فأخذ يتكلم عن العيس والسرى ، وارخاء الأزمة ، والاقامة ، وأخذ يهفو الى نار القرى وخيام القبيلة ، والمسك الأدفر وأخذ يتغنى بالرقمين والحمى النجدى ، وسلع والعقيق ووادي القرى وهي كلها أماكن بأرض الحجاز مر بها في طريقه ، أو طاف بها خياله قبل أن تطؤها قدماه ، ولربما دفعه الحنين كذلك الى رؤية أستاذه عبد الحق ابن سبعين المرسى الذي كان مقيما بمكة المكرمة ، وبعد زيارته هذه الى البيت العتيق ينتقل شاعرنا من أرض الحجاز الى الشام وهو المقام الأخير الذي توفي به ، وفي اقامته هذه أطلق الششتري أزجاله وموشحاته في أسلوب يكاد يكون شامياً خالصاً[51] ومن أزجاله بالشام هذه الأبيات :

سقاني حبي بكؤوس ... من خمرة لم تتعصر
منها شرب الخلوص ... وكل شيء فيها ظهر
بالك تكن بويح أخي ... وأمسك السر العجيب[52]

غير أنا في هذه البيت الأخير تعبيراً أندلسياً مغربياً لربما أكثر منه شامياً مشرقياً مثل ما ذهب إليه الأستاذ النشار ، لأن كلمة بالك ليست شامية فقط بل هي مستعملة في المغرب العربي بكثرة ، وفي كلام الناس العادي . وما يقال في هذه الكلمة يقال في كلمة «بويح» فهي أيضاً مستعملة في تخاطب العامة بالمغرب العربي ، وليس كما ذهب أستاذنا النشار بأنها مستعملة في الشام وغير مستعملة في المغرب ، وانما إن كنت دون الأستاذ النشار فإنني متأكد من أن هذين الكلمتين مستعملتان في الجزائر سواء في البوادي أم في المدن[53] .

هذا هو الششتري عاش حياته الأولى هادئاً مطمئناً ، وعاش حياته الثانية ثائراً متجولاً . لقد ثار على المادة ، وثار على الفقهاء الذين يساندون الأمراء ، وثار على المتصوفين المنزويين في مكان واحد ، وثار على الموسيقى الصامتة فجعلها صاخبة ، وثار على كل شيء يراه غير صالح للزمن الذي عاش فيه .

وبعد تقديم هذه النماذج من أشعاره وأزجال الششتري اتضح لنا بأن الرجل استطاع أن يسيطر على اللهجات المختلفة من قطر الى آخر وقدم أشعاره وأزجاله لكل جمهور بلهجته الخاصة ، وبهذا استطاع أن يجذب إليه الجماهير وأن يؤثر فيها ، وفعلاً قد ترك أنصاراً له ينشدون أشعاره وأزجاله في المناسبات وغير المناسبات ، وبذلك لم يستطيع أيا كان أن يعتبره غريباً طرأ على أرضه ، لقد عاش في كل أرض حل بها عيشة المواطن في لهجته وتصرفاته ودفاعه عن الأرض المقيم بها .

والله ولي التوفيق

المصادر والمراجع

- أحمد الغبريني : عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح أبو نار ، الجزائر 1970م .
- أحمد المقري : نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيره لسان الدين ابن الخطيب ، تحقيق محدي الدين ، القاهرة 1944م .
- أحمد بابا مسكي التمبكتي : نيل الابتهاج على هامش الديباج ، القاهرة 1932م .
- ابن الخطيب لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، القاهرة 1947م .
- ابن خلدون : المقدمة ، طبعة بيروت 1970 ، ابن ليون . الرسالة العلمية ، مخطوط بطنجة .
- ابن عباد الرندي : الرسائل الصغرى .
- الششتري علي : ديوان الششتري ، تحقيق علي سامي النشار ، دار المعارف الاسكندرية 1960م .
- محمد مخلوف : المواهب ، طبعة طرابلس الغرب ، دون تاريخ .
- كحالة ، معجم المؤلفين ، جزء4 ، دمشق 1957م .
- البستاني ، دائرة المعارف ، جزء3 ، بيروت 1960م .
- أبو القاسم درارجة : العلاقات الثقافية بين المغرب الأوسط والأندلس ، بحوث ، عدد2 صفحة 167 – 188 ، 1994م .
- أبو القاسم درارجة : اخوان رامون والتأثير المزدوج ، مقال مجلة اللغة والأدب ، عدد5 1994 .
- DRARDJA (B), Interaccion Cultural : Emigracion de Magribies A AL-Andalus y andalusies a al-Magrib al-ausat Tesis Doctoral, vol2, GRANADA 1989.
- DRARDJA (B), viajeros andalusies a Orionle Islamico a travrs al-magrib al aust, en la obra de al gubrini (s.XIII), 1976 Inedita.
- LATOR (E). «IBN SABIN y su Budd Al-CARIF», Al-Andalus, IX 1944, p.371.
- AL-Nashar (ALI), «LA SUSTARI, mistico Andaluz y su influencia en el Mondo Arabi» R.I.E.I. N° 1 1953. p,129.
- MASSIGNON (E), «Investigation sober al-sustari», en al-Andalus, XIV 1949, p29 y 55.
- Enseclupedoe, 2a. leyden, IV, p408-409.

الهوامش

(1) الغبريني : عنوان الدراية ، ص210

(2) DRARDJA (B), Viajeros Andalusies p.293-231 .

(3) الغبريني : عنوان الدراية ، ص210 .

(4) المقري : نفح الطيب ، تحقيق محي الدين ، جزء2 ، ص384 .

(5) ابن ليون : الرسالة العلمية ، مخطوط بالمكتبة الدرقاوية ، ص3 .

(6) النشار سامي : مقال «الششتري شاعر ناسك» مجلة المعهد المصري ، عدد1 1953 ، ص136 .

(7) نفس المرجع .

(8) أنظر الغبريني : عنوان الدراية ، ص65 .

(9) نفس المرجع : ص73 ، ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص230 .

(10) أبو القاسم درارجة : «Viajeros Andalusies p.127-128» «رسالة الدرجة الثالثة لم تنشر بعد .

(11) الغبريني : عنوان الدراية ، ص210 .

(12) الغبريني : عنوان الدراية ، ص250 ، ابن الخطيب : الاحاطة ، ص179 ، أبو القاسم درارجة : Viajeros Andalusise p.150-170 .

(13) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص129 .

(14) أنظر هامش 11 من هذا المقال .

(15) الغبريني : عنوان الدراية ، ص210 .

(16) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، ص142 .

(17) هو الإمام أبو حامد الغزالي المتوفي بطوس سنة 505هـ ، أنظر كتابه .

(18) أنظر الهامش رقم 10 في هذا المقال .

(19) النشار سامي : «الششتري» مجلة المعهد المصري بمدريد ، عدد 1 ص129 .

(20) نفس المرجع : ص141 .

(21) ديوان الششتري : ص234 .

(22) نفس المرجع : ص177 .

(23) النشار سامي : مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص141 .

(24) نفس المرجع : ص142 .

(25) حول النحم : النحم ، أنظر ...

(26) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص241 .

(27) الغبريني : الدراية ، ض211 .

(28) نفس المصدر .

(29) أنظر مقدمة ديوان الششتري .

(30) نفس المصدر : ص51 ، المقري : نفح جزء2 ، ص284 .

(31) نفس المصدر .

(32) المقري : نفح الطيب ، جزء3/2 ، ص285 .

(33) نفس المصدر .

(34) ديوان الششتري : ص35 .

(35) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص142 .

(36) أبو القاسم درارجة : الرحالة الأندلسيون (Viajeros) ، ص193 .

(37) نفس المرجع .

(38) أبو القاسم درارجة : الرحالة الأندلسيون (Viajeros) ، ص125 – 138 .

(39) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، عدد1 .
(40) أبو القاسم درارجة : الرحالة الأندلسيون (Viajeros) ، ص193 .
(41) نفس المرجع .
(42) الرندي : الرسائل والمسائل ، جزء1 ، ص67 .
(43) الششتري : الديوان ، ص109 .
(44) النشار سامي : الششتري ، مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص151 .
(45) المرجع السابق .
(46) أبو القاسم درارجة : الرحالة الأندلسيون (Viajeros) ، ص193 .
(47) الششتري : الديوان ، ص157 .
(48) النشار سامي : مجلة المعهد المصري ، عدد1 ، ص152 .
(49) المرجع السابق .
(50) الششتري : الديوان ، ص157 .
(51) النشار سامي : مجلة المعهد المصري .
(52) الششتري : الديوان ، ص139 .
(53) أبو القاسم درارجة : الرحالة الأندلسيون (Viajeros) ، ص193 .